

The epic of Haizia between poetic heritage and narrative novel

د. عباسية بن سعيد

أستاذ محاضر "أ" كلية الآداب واللغات

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان -

abbassia.bensaid@univ-tlemcen.dz

تاريخ القبول: ٢٠٢٥/٠٩/٠٨ النشر ٢٠٢٥/١٢/١١

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٥/٠٨/٠٦

الملخص:

يرتبط اسم "حيزيا" بأشهر قصة حب في التراث الشعبي الجزائري، تعتمد أحداث هذه القصة على ترديد ما ورد في قصيدة حيزية للشاعر الشعبي الجزائري محمد بن قيطون، وهي قصة في قصيدة لها نواة تاريخية حقيقية، إلا أن الرواة سرّدها بأساليب مختلفة، مما جعل القصة تتأرجح بين حدّين: حدّ الواقع، وحدّ الأسطورة. غنى هذه القصيدة عدد من المطربين الجزائريين وقد تأثر الشاعر الفلسطيني عز الدين المناصرة بهذه الشخصية، فرسّخها في قصيدة من نوع الشعر التفعيلي باللغة الفصحى، ووضع لها عنواناً: "حيزية عاشقة من رذاذ اللوحات". واللافت أنه وبعد انقضاء قرنين من الزمن عن تلك القصة الحزينة، لا تزال قصتها تلهم الأدباء والشعراء والكتاب إلى غاية اليوم، حيث أصدر الروائي الجزائري واسيني الأعرج رواية عنوانها: "حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة". لكي يعطيها وسماً كأعظم قصة حب جزائرية متّوجة الحب العفيف سلطاناً أبدياً فوق العادات والتقاليد والأعراف. وقد حاولنا في هذا البحث أن نغوص في حفريات الثقافة الوطنية الجزائرية لنخلص إلى الفكرة الأقرب إلى الواقعية في أحداث ملحمة حيزيا.

الكلمات المفتاحية: حيزية - الحكاية - التراث الشعري - الخيال - الروائي

Abstract:

The name "Haizia" is associated with the most famous love story in Algerian folklore. The events of this story depend on repeating what was mentioned in the poem "Haizia" by the Algerian folk poet Mohamed Ben Qaytun. It is a story in a poem that has a real historical core, but the narrators narrated it in different styles, which made the story swing between two limits: the limit of reality and the limit of legend. This poem was sung by a number of Algerian singers, and the Palestinian poet Ezz El-Din El-Manasra was influenced by this character, so he established it in a poem of the free verse genre in classical Arabic, and gave it the

title: "Haizia, a lover of the spray of the oases." It is noteworthy that after two centuries have passed since that sad story, its story continues to inspire writers, poets and authors to this day, as the Algerian novelist Wasini Al-A'raj published a novel entitled: "Haizia, the sigh of the slaughtered gazelle." To give it a label as the greatest Algerian love story, crowning chaste love with eternal power above customs, traditions and norms. In this research, we have tried to delve into the excavations of Algerian national culture to arrive at the idea closest to reality in the events of the Haizia epic.

Keywords: Haizia - the story - the poetic heritage - imagination - the novel

مقدمة:

ينطلق هذا البحث من إشكالية انعكاس التراث الأدبي على السرد الروائي المعاصر، متخذًا من التفاعل النصي بين رواية واسيني الأعرج الأخيرة وقصيدة ابن قيطون الشهيرة في رثاء "حيزيا" نموذجًا للدراسة. ويهدف إلى إبراز جماليات المستويات الدلالية والفنية الناتجة عن هذا التفاعل بين جنسين أدبيين مختلفين، مع التركيز على تباين تمثيلات قصة الحب المساوية بين النص التراثي وإعادة كتابته السردية الحديثة.

وقد وقع اختيارنا على شخصية "حيزيا" نظرًا لمكانتها البارزة في المتخيل الأدبي والفني الجزائري، حيث أصبحت أيقونة ثلهم المبدعين داخل الجزائر وخارجها. وانطلاقًا من ذلك، تقصينا حضورها الأدبي بدءًا من النص المؤسس لقصتها، وهي قصيدة الشعر الملحون التي نظمها الشاعر ابن قيطون، والتي ضمنت لها الخلود في الذاكرة الشعبية الجزائرية.

وتعود شهرة قصة حيزيا عربيًا وعالميًا إلى أسباب عدة، يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: الانتشار الفني والشعبي للنص الأصلي؛ حيث استطاعت قصيدة "عزوني يا ملاح" لابن قيطون أن تخترق الوجدان الجماعي بفضل أصوات كبار المطربين الجزائريين الذين تولوها بالآداء، ومن أشهرهم عبد الحميد عبابسة، وخليفتي أحمد، ورابع درياسة. كما تم تحويل قصتها إلى فيلم سينمائي ناجح أخرجه محمد حازوري عام ١٩٧٦، مما رسّخ صورتها في الأذهان.

ثانيًا: الحضور المتجدد في الإبداع المعاصر؛ إذ ظلت قصتها مصدر إلهام متجدد للأدباء والشعراء والكتاب إلى اليوم. ولعل أبرز عمل أعاد تقديمها عربيًا هو قصيدة الشاعر الفلسطيني عز الدين المناصرة "حيزية عاشقة من رذاذ الواحات" (١٩٨٦) التي أدخلتها إلى فضاء الشعر العربي الحديث. وتوالت الأعمال بعد ذلك، ومنها:

- **مسرحيًا:** مسرحية "حيزية" للشاعر ووزير الثقافة الأسبق عز الدين ميهوبي.
- **روائيًا:** تعددت المعالجات السردية، فأصدرت الروائية مایسة باي عام ٢٠١٥ رواية بعنوان "حيزية"، أسقطت فيها القصة التراجيدية على يوميات فتاة جزائرية معاصرة. كما أصدر الروائي لزهري لبتاري رواية "حيزية أميرة حب الزيبان" التي صورت رحلة القافلة في أواخر القرن التاسع عشر. وصولًا إلى رواية واسيني الأعرج "حيزيا: زفرة الغزالة الذبيحة كما روّتها لالة ميرا" التي تعد أحدث وأبرز تجلٍ روائي للقصة.

أما على الصعيد النقدي، فقد حظيت قصيدة ابن قيطون باهتمام دراسي ملحوظ، من أهمه دراسة الأستاذ أحمد لمين الموسومة "حيزية الملحمة الجزائرية"، التي كشفت عن الملابس التاريخية لإنتاج القصيدة وما حيك حولها من تأويلات. كما صدر كتاب "قصيدة حيزية: دراسة تحليلية" للباحثة نعيمة العقريب، التي درست القصيدة من منظور تناسي وبنوي، معتينةً بخصائصها الصوتية والتركيبية والدلالية..

التراث بين الشعر الشعبي والرواية:

* حيزية، حيزية وحيزية الأصل فيه أظنه من الحيازة أي التملك؛ فكأن حاملة هذا الاسم حازت الجمال والكمال، أو كأنها تحوز قلوب الرجال أو ما تريد، ولدت (حيزية بنت أحمد بن البايع بوعكاز) عام (١٨٥٥م) في بلدية سيدي خالد بسكرة) وتوفيت عام ١٨٧٨م. ويؤكد المؤرخ الجزائري محمد العربي حرز الله، بأن حيزية هي أميرة تنتمي إلى عائلة بوعكاز من فروع عرش الذواودة وهي بطن من بطون القبائل الهلالية، وأن بوعكاز هو لقب الأمير علي بن الصخري، الذي أصبح أمير منطقة الزاب عام ١٤٩٦م، بعد أن كلّفه الزبانيون بهذه الإمارة (إمارة العرب).

يشكّل التراث الشعبي القوام الثقافي لأي جماعة، حيث تبرز من خلاله الشخصية الجمعية وتتجلى قيمها العليا وخبراتها المتراكمة عبر التاريخ. يعرفه عبد الحميد يونس بأنه يتألف من "عناصر تعمل على تحقيق ما استقر في النفس الجمعية العامة في إطار شعب من الشعوب". (يونس، ١٩٧٩، صفحة ٦) وبصورة أشمل، يمكن تعريفه جزء لا يتجزأ من هويته الاجتماعية والإنسانية، وهو "ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد وعادات وتجارب وخبرات وفنون وعلوم في شعب من الشعوب. وهو جزء أساسي من قوامه الاجتماعي والإنساني والسياسي والتاريخي والخلقي، ويوثق علاقته بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث واغنائه". (جبور، ١٩٨٤، صفحة ٦٣)

وينقسم التراث إلى شقين: **مادي ملموس** (كالمباني والأدوات)، و**معنوي غير ملموس** (كالعادات واللغات والطقوس والإنتاج الأدبي). وهذا الشق الثاني هو ما يُعرف بالتراث الشعبي الذي يعد، ومن مجال التراث الشعبي، تنظّم العادات والتقاليد والطقوس جميع الشروط التي تلتزم بها الأسرة وقد تختلف الطقوس والشعائر باختلاف البيئات الثقافية أو الطبقات الاجتماعية، ولكنه اختلاف يقوم على الشكل ويحتفظ دائما بالمضمون الذي يعبر بجلاء عن أفكار الجماعة. يرى عز الدين إسماعيل أنّ: "تراث كل أمة هو ركيّزتها الحضارية، وجذورها الممتدة في باطن التاريخ". (إسماعيل، ١٩٨٠، صفحة ٨)

فالتراث ذاكرة الأمم والشعوب، يحمل ثقافتهم وحضارتهم وكل ما يتشكّل منه النسيج الواقعي للحياة، حيث يجمع المضامين الفكرية والعقيدية واللغوية والأدبية. يقسّمه الدارسون إلى جزأين الأول مادي ملموس وهو كل ما خلّفه السابقون من مباني وملابس وأدوات وغيرها، والثاني تراث معنوي غير ملموس، من عادات وتقاليد وطقوس ولغات وإنتاج أدبي، يطلق عليهما التراث الشعبي والذي عملت على تكوينه أجيال متتابعة.

والمأثور الشفاهي هو "البذرة الأولى التي نمت منها المأثور الشعبي بكل أشكاله وأجناسه، والكتابة لعبت دورها في حفظ جزء مهم من المأثور الشعبي لدى كل الشعوب في شكل الأساطير والملاحم والقصص الخيالية والشعر والغناء الشعبي، وما إلى ذلك من الأشكال". (بيزید، ٢٠٠٦، صفحة ٥٠) ورغم أنّ الأدب الشعبي شفاهي يعتمد على الحفظ والرواية رغم ذلك فإن استعراض التراث الأدبي بمثل الإبداع المعبر عن وجدان الجماعة عند جميع الذين عرضوا للفلكلور والمأثورات الشعبية.

ويعد الشعر الشعبي عند أكثر الدارسين والمتذوقين أهمّ حلقة من حلقات التراث الشعبي، فقد لعب الشعر الشعبي الجزائري دورا هاما في التعبير عن الهوية الثقافية والذاكرة الحضارية للشعب الجزائري، وكان لساهم الذي يجبر عن أمجادهم ويشحذ الهمم ويثير الحماسة ويصف التحولات الاجتماعية، كما حمل كثيرا من المضامين الإنسانية والنضالية. ومن الملفت للنظر أنّ الشاعر الشعبي لم يغفل عن هذه الأحاسيس حتى وهو يتغزل ويصف محبوبته، لقد ربط بين فيض قلبه وبين مشاعره وأحاسيسه اتجاه قومه ووطنه. ازدهر الشعر الشعبي في الشمال الجزائري وفي واحات الجنوب الشرقي والغربي وأصبح من الفنون الأكثر تعبيرا عن حاجات الوجدان الشعبي وعن الهوية والثقافة.

للشعر الشعبي دور مهم رغم تهميشه لاعتبارات إيديولوجية، ورغم ذلك نجد عددا من الدارسين الذين اعتنوا بهذا النوع من الأدب، يذكره عبد الحميد يونس فيقول: " أن عوامل التأثير البيئية أقوى جدا من التأثير فيها، والذي لا شك فيه أن الأدب الشعبي... أدل على بيبته من أدب الخواص." (يونس ع.١٩٥٦، صفحة ١) يقصد بأدب الخواص الأدب الرسمي.

وخير مثال قصة حيزيا التي أخذت شهرتها من شهرة النص الشعري الذي يحمل اسمها، فلولا قصيدة الشاعر ابن قيطون ما كان لهذه القصة أن تعرف طريقها إلى التاريخ وتصبح أيقونة قصائد الشعر البدوي في الحب، وعبر فيها الشاعر عن العادات والتقاليد التي كانت تحكم المجتمع العربي في منطقة الصحراء الجزائرية. ويؤكد محمد العربي حرز الله في كتابه "الظاهرة الثقافية في سيدي خالد أثناء عهد الاحتلال الفرنسي" (حرز الله، ٢٠٠٥، صفحة ٤١٦) أن سبب شهرة قصة حيزيا يعود إلى عدة عوامل، منها: جماليات قصيدة محمد بن قيطون، وعلمية قصيدة عز الدين المناصرة، ومأساة حيزيا الدرامية، ويرجع العائق الأساسي في عدم انتشارها خارج الحدود إلى صعوبة كلماتها باللهجة البدوية الجزائرية.

أما في ما يخص أثر التراث على الأدب الرسمي بصفة عامة والرواية بصفة خاصة، يرى فاروق خورشيد أن " التراث الشعبي جزء من الموروث الثقافي لأدباءنا وفنانينا، وهو أيضا جزء من الموروث الحضاري لأمتنا فلا بد من أن يترك بصماته على الإنتاج الأدبي." (خورشيد، د.ت، صفحة ٦) فحفر الأدباء في التراث لم يكن لغاية مبهمة، بل كان الهدف إعطاء صبغة جديدة ومعاصرة للأعمال الأدبية بحضور هذا الإرث كعامل يبرز اعتزاز المؤلف بجويته الثقافية. ومنه نخلص أن التراث الشعبي أصبح "منبعا خصبا يمد الكتاب والأدباء بخامات الإبداع الأدبي ومواضيع أولية، لها من الحيوية والبعد الإنساني ما يضمن أداءها لهذه المهام المتعددة." (بلحيا، ٢٠٠٠، صفحة ١٢)

والرواية في ما تذهب إليه تعتمد على عناصر واقعية، موقعها كتب التاريخ وعلى عناصر متخيلة خلقها الروائي وهو يعيد تخليق الوقائع التاريخية. أما العنصر المتخيل فيتمثل في نسق الشخصيات الشعبية.

فقد يتخذ الكاتب من الأحداث أو الشخصيات التراثية قناعا ووسيلة للتعبير عن واقع معاش، أو لأسباب إبداعية يريد أن يبين مدى غنى التراث الشعبي والرغبة في إحياءه. الأسباب القومية والوطنية هي أحد العوامل المهمة التي دفعت الروائي على

لا تعرف الشخصيات الشعبية، على المستوى العميق، بأفعالها المتنوعة وأحوالها المتبدلة، بل بالبنية اللغوية الشعبية. تُنطق اللغة المتوارثة على ألسنة بشر لا يبحثون عن الكلام، مكتفين بلسان واحد يتقاسمه الجميع.

يجب أن نذكر في هذا الصدد ما خلفه الأدب الفصيح من آثار على الأدب الشعبي وكذلك ما حمله بنو هلال من تراث عربي تمتد جذوره إلى العصر الجاهلي،

ولعل هذا الفضاء الإنساني الواسع، الذي تأخذ فيه الشخصيات الروائية مواقع الوثائق التاريخية وتفيض عليها، هو ما يتيح لـ "حيزيا" أن تعطي خطابا تاريخيا قوامه الثابت والمتغير.

لكن الرواية وهي تحتفي بفضاء شعبي متوالد، تجمع بين نسقين كلاهما سلطوي موروث، الأول السلطة الأبوية التي يملؤها الجشع والغرور، والنسق الثاني سلطة القبيلة التي لا تختلف في دلالتها التاريخية عما كانت عليه في المجتمع العربي القديم، إلا ما استبدل من معتقدات بكرامات الأولياء.

وفي الرواية على وجه الخصوص، يتجلى هذا التوظيف عبر مزج العناصر الواقعية المستقاة من التاريخ بالعناصر المتخيلة التي يخلقها الروائي. وبينما تُبنى الشخصيات الشعبية على المستوى العميق من خلال بنيتها اللغوية المتوارثة، فإن الروائي يلجأ إلى هذه التقنية لخلق حواراً بين شخصيات فعلية وأخرى متخيلة، حيث "المتخيل يعترف بالواقعي ويخلقه معاً". وهكذا، تتحول الشخصية الواقعية التاريخية، مثل "حيزيا"، إلى شخصية روائية "واقعية-متخيلة"، تكتسب أبعاداً جديدة. فالرواية، وهي تحتفي بهذا الفضاء الشعبي، غالباً ما تفكك أنساق السلطة الموروثة، كالسلطة الأبوية وسلطة القبيلة، لتقدم خطأً تاريخياً نقدياً قوامه الثابت (الأصل التراثي) والمتغير (المعالجة الروائية).

٢- مفهوم الملحمة:

تُعرف الملحمة (Epic) في أصلها الكلاسيكي بأنها نوع من السرد الشعري الممتد الذي يؤرخ لمغامرات بطولية أو أسطورية، يكون بطلها ذا مكانة استثنائية في تاريخ جماعته. غير أن المفهوم الحديث للمصطلح قد اتسع وتجاوز حصره في القالب الشعري، ليشمل أشكالاً سردية ثرية تستمد موضوعاتها من الثقافة الشعبية والتاريخ الاجتماعي. وانطلاقاً من هذا المفهوم المتسع، يمكن مقارنة قصة "حيزيا" بوصفها ملحمة وجدانية مأساوية. فرغم أنها لا تدور حول حرب أو بطل قومي، إلا أنها تجسد الصراع الجوهرى الذي هو لب العمل الملحمي: الصراع بين الإرادة الفردية (الحب) والسلطة الجماعية المتمثلة في الأعراف والتقاليد القبلية الصارمة. إن حجم الألم والمعاناة، والمصير التراجيدي الذي آلت إليه القصة، يمنحها تلك الصبغة الملحمية التي ضمنت خلودها في الذاكرة الشعبية. هذه الطبيعة الملحمية للقصة هي التي جعلتها مادة خصبة ومُلهمة، فتم استلهامها في عدد من الإبداعات الأدبية، شعرية ونثرية على حد سواء، ومن أبرزها رواية واسيني الأعرج موضوع هذه الدراسة، التي تعيد تشكيل هذه الملحمة التراثية في قالب روائي معاصر.

٣- قصة حيزيا بين الشعر الشعبي والرواية:

تتمحور هذه الدراسة حول تتبع أثر شخصية "حيزيا" ضمن سرديتين أساسيتين تمثلان نقطتي ارتكاز متقابلتين:

١. النص المؤسس: وهو قصيدة الشاعر محمد ابن قيطون، التي كُتبت باللهجة الجزائرية البدوية عام ١٨٧٨م. تُعد هذه القصيدة السردية المصدر، وتُصنّف ضمن شعر الحب العذري لما تحمله من قيم الطهر والعفاف والموت حزناً على فراق الحبيب، وهو ما يذكر بقصص العذريين في التراث العربي الكلاسيكي.
٢. إعادة الكتابة الروائية: وتتمثل في رواية الكاتب الجزائري واسيني الأعرج المعنونة بـ "حيزيا: زفرة الغزالة الذبيحة". تقدم هذه الرواية قراءة معاصرة ومغايرة للقصة المتوارثة.

يكن جوهر التوتر والإشكالية البحثية في التناقض الصريح بين هاتين السرديتين، خصوصاً في تفسير ملاسبات وفاة "حيزيا"؛ فبينما يقدّمها النص الشعري كضحية للحزن واللوعة، تعيد الرواية بناء الحدث لتقدم أسباباً مختلفة جذرياً، وهو ما يفتح الباب واسعاً لدراسة هذا التحول الدلالي.

٣-١ قصيدة محمد بن قيطون في الشعر الشعبي:

محمد بن قيطون واحد من فحول الشعر الملحون، اشتهر بفضل قصيدة حيزيا* (أمين، ٢٠٠٧، الصفحات ٩٥-١١٤)، على الرغم من أن اسم الشاعر محمد ابن قيطون ارتبط بشكل وثيق بقصيدته الخالدة في رثاء "حيزيا"، فإن إنتاجه الشعري كان في حقيقته متنوعاً ومتعدد الأغراض. فقد كتب قصائد أخرى في تمجيد أبطال المقاومة الشعبية، ومدح علماء الدين وشيوخ الزوايا، إضافة إلى نظمه في المديح النبوي والتعبير عن الشوق لزيارة قبر الرسول ﷺ، مما يعكس الأبعاد الوطنية والروحية العميقة في تجربته.

وقد تشكّلت هذه الموهبة الشعرية الفريدة في بيئة أدبية وروحية خصبة، هي واحة سيدي خالد مسقط رأسه. ففي "الزاوية الجرونية" بالقرية، تلقى تعليمه الأولي حيث حفظ القرآن الكريم وتفقّه في أصول الدين. ولم يكتفِ بذلك، بل تنقل بين الزوايا الشهيرة في عصره، كالزاوية القاسمية بالهامل، لحضور الحلقات الفقهية والعلمية، قبل أن يتمنّ تعليم الصبيان القرآن. وفي خضم هذه الأجواء المشبعة بالعلم والتصوف، تفتقت عبقريته الشعرية وتغذت من معينها.

في هذا السياق، استطاع الشاعر أن يوظف مَلَكَته الفنية لنقل مأساة "حيزيا" من مجرد حادثة محلية إلى عمل في خالد، فأصبحت قصيدته رمزاً من رموز الشعر الملحون. وتكن عبقرية النص في أنه يتجاوز غرضه الأصلي، وهو الرثاء، ليصبح وثيقة أنثروبولوجية لا تقدر بثمن؛ إذ يزخر بمعلومات دقيقة وتفاصيل غنية حول حياة البادية وتراثها وعاداتها، مما يمنح الباحث مادة خصبة لدراسة بنية المجتمع البدوي في تلك الحقبة التاريخية.

وفقاً للسردية المتداولة في التراث الشفاهي، تبدأ القصة في كنف عائلة واحدة؛ حيث نشأ سَعِيدٌ يتيماً في منزل عمه، وترى جنباً إلى جنب مع ابنة عمه حيزيا. مع بلوغهما، تحولت ألفة الطفولة إلى عشق عميق، مما دفع والدها إلى محاولة الفصل بينهما بعزل سَعِيدٍ في خيمة بعيدة. إلا أن الرحلة الموسمية التي كانت تقوم بها القبيلة من واحة سيدي خالد جنوباً إلى مناطق الشمال الخصبة، كانت بمثابة فرصة للقاء الحبيين سرّاً وتحديد عهودهما.

يتخذ الصراع بعد ذلك بُعْداً اجتماعياً، إذ حاول والد حيزيا تزويجها من فرسان القبيلة أو من شخصيات نافذة من قبيلة "بن قانة" المجاورة، وذلك لاعتبارات عشائرية تهدف لتعزيز مكانة الأسرة. لكن حيزيا واجهت هذه الضغوط برفض قاطع وإصرار على التمسك بحبها لابن عمها. وأمام هذا الإصرار، رُفعت الموانع أخيراً وتزوج الحبيبان، غير أن القدر لم يمهلهما طويلاً.

* أول من نشر قصيدة حيزيا ابن قيطون، هو الأستاذ عبد الحميد حجّيات في (مجلة آمال، عدد ٤، نوفمبر، ديسمبر، ١٩٦٩،

الجزائر). وفي عام ٢٠٠٩ نشر السعيد بحري النص بعد أن أجرى مقارنة بين نص حجّيات ونص محمد عيلان، ونشر النص مشروحاً كملحق لديوان "حيزية عاشقة من رذاذ الواحات". ومن قصائد محمد بن قيطون أيضاً: من طيبه هب ريح - في رثاء الشيخ محمد بلقاسم - في مدح الشيخ محمد بلقاسم قلت انساك - خيرة ابن الدونان.

تصل المأساة إلى ذروتها عندما تُصاب حيزيا بمرض خطير ومفاجئ، سرعان ما يؤدي بحياتها ويترك سعيد وحيداً ومكلوماً. وفي محاولة منه لتنفيس ألمه وتخليد ذكرى حبيبته، قصد العاشق الشاعر الشعبي المعروف **محمد بن قيطون**، ورجاه أن ينظم قصيدة في رثائها. استجاب الشاعر وكتب قصيدته الشهيرة التي سرد فيها فصول المأساة بلغة مؤثرة، مما ضمن للقصة الذبوع والانتشار في البادية الجزائرية. أما العاشق، فقد هام على وجهه في الصحراء حزناً على معشوقته. وقد حرص ابن قيطون نفسه على تأريخ هذا الحدث، خاتماً نصه بالإشارة إلى أنه كتبه عام ١٨٧٨م، وهو نفس عام وفاة حيزيا، مانحاً بذلك الأسطورة سنداً تاريخياً.

يقوله: (بن قيطون، ٢٠٠٩، الصفحات ٣٩-٥٦)

تَمَّتْ يَا سَامِعِينَ فِي الْأَلْفِ وَمِئَتَيْنِ كَمَلَّ تَسْعِيرٌ وَزَيْدٌ خَمْسَةٌ بَاقِيَا

ويؤكد الشاعر على ذكر مكان نظم القصيدة، مع ذكر اسمه في الأخير - كما جرت عادة شعراء الملحون - بقوله: (بن قيطون، ٢٠٠٩، صفحة ٥٦)

فِي خَالِدِ بَنِّ سَنَانُ بَنِّ قَيْطُونُ فَلَا نَ قَالَ عَلَى لِي زَمَانُ شَفْتُوْهَا حَيَا

وهكذا حفظ لنا بن قيطون هذه القصة من الضياع من خلال قصيدته "عزوني يا ملاح". أما النص فيقول إنها تحوّلت إلى إيقونة في الصحراء الجزائرية، وقبرها علامة للموت من أجل الحب، اتخذ مزاراً إلى يوم هذا. أما اللازمة التي لا تفتأ تتردد عند كل مقطع فهي تأكيد على حزن عميق شبّهه الشاعر بالشعلة التي لا تنطفئ لفقدان من يجب:

عَزُونِي يَا مَلَاخُ فِي رَايْسِ لَبَنَاتِ سَكَنْتُ تَحْتَ اللَّحُودِ نَارِي مَقْدِيَا

وَقَلْبِي سَافَرُ مَعَ الرَّاحِلَةِ حِيزِيَا (بن قيطون، ٢٠٠٩، صفحة

٥٦)

ويقول صلاح عبد الصبور: "ليس التراث حركة جامدة، ولكنه حياة متجددة، والماضي لا يحيا إلا في الحاضر، وكل قصيدة لا تستطيع أن تمد عمرها إلى المستقبل لا تستحق أن تكون تراثاً." (عشري، ١٩٩٧، صفحة ٣٠) * ويدفعنا ذلك إلى طرح السؤال: هل نص واسيني الأعرج اكتسب القوة لأنه تناس مع تراث شعري صحراوي.

٢-٣ رواية "حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة" لواسيني الأعرج:

شغف الأعرج بالتاريخ لا ينحصر في مخزونه من الأحداث والعلاقات، بل ينصرف أيضاً إلى استلهم عيون التراث السردية العربي العتيق، بكتابة نصوص تنفخ الحياة في تراث بدا وكأن قراءته باتت مغلقة، ولا تتجاوز مستوى المتعة الحكائية رهان الرواية التاريخية، في رأي الأعرج، يكمن في تعقب الفراغات التي أهملها التاريخ الرسمي والأيدولوجي، والاستناد على بعض العلامات المضئية لتقول ما أغفله المؤرخون أو طمسته المؤسسات، لكنه يحرص على التأكيد على أن الرواية ليس منوطاً بها إنتاج معرفة تاريخية علمية، لأن اللبس والانفتاح على التأويل من صلب الإبداع السردية.

* في مقابلة مع الشاعر أجزها محمد المبارك، الأقلام، السنة السابعة، عدد ١١، ص ٩٦.

الروائي الجزائري واسيني الأعرج يعد أحد رواد فن الرواية التاريخية في العالم العربي، إذ لا يفتأ يقترح على القارئ تجارب مجددة هي خلاصة زيارات متواترة للتاريخ العربي تارة وللتاريخ الجزائري بوجه خاص تارة أخرى، علما بأن رواياته التخيلية الصرفة لا تخلو هي الأخرى من وعي حاد بالزمن وحركة الإنسان في التاريخ.

حسب دراسة نصية لواسيني الأعرج حيزية لم تفارق الحياة بسبب مرضها، بل تم تسميمها من طرف والدتها، ففارقت الحياة متأثرة بالسّم الذي كان يستخرج من نوع من العقارب، أي تم التخلص منها بسبب حملها الغير شرعي من عشيقها. ولا وجود لرجل اسمه سعيد أحب حيزيا، لأنه شخصية وهمية اختلقها الشاعر بن قيطون وتوارى خلفها في قصيدته. والدليل ما ذكره في الرواية عن حبّ الشاعر لها ولقاءات حيزيا الغرامية به، على سبيل المثال: "ويرى عبد العالي مزغيش أن ما يتحدث عنه الروائي واسيني الأعرج محاولة منه لتخيل بعض الأحداث، باعتبار أن الخيال عنصر مهم في السرد الروائي، غير أنه مغامرة خطيرة في حال كان الكاتب بخياله يطمس الحقيقة المجردة المتداولة بين الناس.

من الملاحظ على أعمال واسيني الأعرج أنّه دائم الاهتمام بالارتداد إلى الموروث الثقافي، خاصة استدعاء الشخصيات التراثية. والسبب وراء شيوع هذه الظاهرة عوامل كثيرة ثقافية وفنية واجتماعية، ومن بين هذه العوامل إحساس الكاتب بمدى غنى التراث وثرائه بالإمكانات الفنية وبالمعطيات والنماذج التي تستطيع أن تمنح السرد طاقات تعبيرية، تتجاوز الزمن من الماضي إلى الحاضر، وتأثرا بحركة الإحياء التي ركزت على توجيه الأنظار إلى ما في التراث من قيم فكرية وروحية وفنية.

وقد حضرت المرأة في التراث الفكري- الفني الإنساني، كما وظفتها الأعمال الأدبية، فهي تتخذ أبعادًا واقعية وأخرى متخيلة، كما تقوم بدور المهمة لكل فعل إبداعي، مع تسجيل اختلافات إيديولوجية وجمالية بين المبدعين أثناء توظيفهم للمرأة، وذلك باختلاف المنطلقات الفكرية والمرجعيات الاجتماعية- الثقافية.

وتوصف بطلتها بحوليت البلاد وأيقونة العشق، ويتداول الناس حكايتها، وتمسكها بمن تحب رغم الضغوط الممارسة عليها، لتنتصر في النهاية وتتزوج بحبيبها لكن الموت خطفها بعد فترة قصيرة من ذلك، ليتحول قبرها إلى معلم أثري وسياحي، وتتحول قصتها إلى قصائد شعرية وروايات أدبية وأغان شعبية. وهو شأن حيزيا الشخصية الشعبية ذات الملامح للبطل الرمز والتي أصبحت قصة خالدة، وامتد حضورها المدهش في ذاكرة الإبداع، ليستقر في شعر ابن قيطون، ثم تتجدد بالظهور على مستوى سردية الأعرج كفضاء دلالي مغاير، وتأخذ بتجليات رمزية أخرى.

ظلّ واسيني الأعرج لسنوات طويلة يبحث بأحداث ووقائع قصة حيزيا، ليقدّم تفاصيل مخالفة للرواية المتداولة والرائجة بين الجزائريين. إذ نشر في صفحته على فيسبوك أنه وبعد زيارته لمسقط رأس حيزية في سيدي خالد توصل إلى قناعة مطلقة بأن العاشق سعيد غير موجود وإنما كان مجرد قناع للشاعر ابن قيطون باعتباره العاشق الحقيقي، ويرر ذلك بعثوره على قبور العائلة عند زيارته للمقبرة التي وضعت عليها الشواهد حديثا إلا قبر سعيد، إلا أنّ الحكاية تقول أنّه هام في الصحراء بعد موت حيزيا، أما في الرواية فيعطي الكاتب نهاية أخرى مخالفة لما توارث في الذاكرة الشعبية.

ويذهب الأعرج لأبعد من ذلك بقوله إن حيزيا لم تمت مرضا، وإنما قتلت على يد والدتها بعدما اكتشفت أنها حامل من عشيقها الشاعر ابن قيطون. لأنّ الوصف الوارد في القصيدة دقيق جدا ولوعة الحزن بادية فيها، لا يحس بها إلا العاشق، وبالتالي فإن هذه الفكرة تتفق مع طرح واسيني الأعرج. ويذهب أكثر من ذلك فيضيف أحداثا أخرى للقصة، فيروي أنّ حيزيا أنجبت فتاة وسمتها ميرة، بعد أن تظاهرت خالتها بأنّها حامل بعد عقم طويل، لتستر على فضيحتها التي تكلفها حياتها. تقول عيشة أم حيزيا: "حالة مثل هذه يدفع صاحبها الثمن قتلا. شوفي بنات القبيلة اللي غلطوا كيف كانت مصائهم." (الأعرج، ٢٠٢٤، صفحة ٢٧٩)

فواسيني الأعرج جازف بتغيير الوقائع المتداولة إرضاء لسيناريو روايته، مما أثار حفيظة أهل المنطقة. رغم أننا لا ننفي جهود الأعرج في كتابته للتاريخ روائيا، مثل ما فعل في رواية الأمير مجزأها، وهو يؤكّد في حواراته بأنه لا يكتب التاريخ وإنما هو روائي قد يأخذ من التاريخ شخصياته ويتخيّل أحداثا مغايرة. يغيّر واسيني الأعرج القصة الشعبية، من حيث الصفات الشخصية لحيزيا، كما يحوّر في العمق النصي الملحمة التي عاشتها حيزية، ويختار الكاتب مع دلالة الموت من النص الشعبي، فأحالنا نحو أجواء صراع قبلي تحكمه العادات والتقاليد في مجتمع سلطوي ذكوري.

يفتح واسيني الأعرج ذاكرته الأسطورية، ويبحث عن كل عنصر أو قصة تناسب حيزيا، ولأنّ الصورة تصدر عن اللاوعي الجماعي، منها ما يرتبط بالتراث التاريخي أو التراث الأدبي أو ما يتدخل في المجال الديني، نجده قد وجد ما يجمع بينها وصورة الغزالة الذبيحة. فبعد دلالات الخصب يتوقف الروائي عند فكرة تشبيه حيزيا بالغزالة المقتولة ظلما. في قوله على لسان لالة ميرة: "اقرأ الفاتحة على حيزيا وعلى الغزالة الذبيحة، لأتّهما شيء واحد، أختان بجسد مجروح." (الأعرج، ٢٠٢٤، صفحة ١٦٨)

قد نتوقف هنا، فتساءل عن سبب اختيار الأعرج للغزالة، والوارد أنّ لكل حيوان دلالة على موقف الشعوب من الألفة أو النفور، وما من شعب إلا وفي عاداته ما يجسم علاقته بالحيوان. فتوظيف الروائي للغزالة - في سياق أسطورة الشخصية الشعبية يؤدي إلى عملية دمج بين الحقيقي والإبداعي أو بين الشعبي والأسطوري. وفي الأساطير العربية القديمة كانت الغزالة دائما رمزا للتشبيب بالمرأة، حيث يؤكّد أحمد كمال زكي أنّ هناك قطبين يجتمعان في الشعر العربي القديم وهما المرأة والغزال في مستويات الجمال والرفقة والخصوبة. (زكي، ١٩٨١، الصفحات ١١٥-١٢٧) ومنه قول أبي دؤاد الإيادي:

وَتَرَاهُنَّ فِي الْهَوَاجِ كَالْغَزَلَانِ مَا أَنَّ يَنَآلَهُنَّ السَّهَامُ

يجمع محمد عجينة وحول أسطورة تحريم صيد الطّباء، "فقد كان الظلي حيوانا مقدّسا، وكان العرب يعتقدون أنّه ماشية الجنّ، ولذلك حرّموا صيده في الحرم." (عجينة، ١٩٩٤، صفحة ٢٩٠)

لقول امرئ القيس: (القيس، ١٩٩٤، صفحة ٣٤)

وَمَاذَا عَلَيْهِ أَنْ ذَكَرْتُ أَوَانِسَا كَغَزَلَانٍ رَمَلٍ فِي مَحَارِبِ أَقْيَالِ

وتكون صورة المرأة أكثر ارتباطاً بمستويات التصوير الجمالي الناضج وبتفاعلات المرأة بالطبيعة وفضاءاتها الساحرة. فقد اهتمّ الشاعر العربي القديم بكثرة التشبيهات واستعماله لمختلف فنون البلاغة العربية، في أسلوب قد يختفي وراءه الجانب الآخر للصورة المنطلقة من المعتقد الديني أو من الصورة المحيطة بالمجتمع والبيئة التي يعيش فيها. والحقيقة أنّ المرأة وما توحى به معاني الأنوثة والركة والجمال، لذلك مثلوها بالغزال. وتوارث المجتمع العربي الذي استمد نفس صورة المرأة البدوية التي تمتاز بالخفة والجمال.

لقد أراد الأعرج لنهاية حيزيا أن تكون خاصة، يؤسّسها بوعيه وقراءته للموروث الشعبي، دون النقل المباشر والسطحي، وعبر التحوير وإدخال التشويه على القصة الأصلية، لتكون تجربة مراوغة للقراء ومتحدية لوعيهم النقدي، لذا وجب أن يكون قارئ روايات واسيني الأعرج متعدّد المرجعيات، مؤمناً بالتجريب على المستويات الشكلية والدلالية، لأنّه سيصادف كاتباً لا يتوقف عند القواعد التقليدية، وإنما يسير نحو التغيير للبعد عن الركود الإبداعي.

خاتمة:

تعتبر قصة حيزيا من بين أشهر القصص الشعبية التي توارثها شغفوا المجتمع الصحراوي الجزائري، وأخرجها إلى النور الشاعر ابن قيطون أحد شعراء الملحون في القرن التاسع عشر بمنطقة سيدي خالد. اشتهرت القصيدة بصفتها ملحمة عشقية، كانت نهايتها مأساوية. وقد خضعت القصة لروايات مختلفة تتباين بين الحقيقة والأسطورة. وجاءت رواية "حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة" إلا قراءة مغايرة لقراءة ابن قيطون الشعرية. فارتداد واسيني الأعرج إلى الماضي واستعارة شخصية حيزيا في روايته، ما هو إلا حنين إلى كل ما هو تراثي يستقي من هذا المنبع الغني الأحلام الساذجة للهروب من عالم مادي معقد. هنا لا يمكنه أن يحقق هذا الجمال في الإبداع، إلا إذا استقى مما يؤثر في وجدان الجماهير وعقولهم، لأنّ أول شروط توافر أي نموذج من نماذج العلاقة بالموروث في النتاج الشعري أو السردية هو أن يكون للأدوات التراثية التي يستخدمها المبدع في إطار هذه الصيغة حضور حي في وجدان الجماهير. ورغم تضارب الروايات بشأن التفاصيل المرتبطة بطبيعية العلاقة التي جمعت العاشقين وكيف توفيت حيزيا. وأمام كل الاحتمالات يبقى الدارس عاجزاً عن تأكيد رواية دون أخرى، ويبقى اسم حيزيا خالداً كصاحبة أعظم ملحمة حب في تاريخ الجزائر.

المراجع:

الأعرج، و. (2024). *حيزيا زفرة الغزالة الذبيحة كما روتها لالا ميرا*. (5 ed.) عنابة، الجزائر: دار النهى للتشر والتوزيع.

القيس، أ. (1994). *الديوان*. القاهرة، مصر: دار المعارف.

أمين، أ. (2007). *صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري*. الجزائر: دار الحكمة.

بلحيا، ط. (2000). *التراث الشعبي في الرواية الجزائرية*. الجزائر: منشورات التبيين الجاحظية.

بن قيطون، م. (2009). *الديوان*. الجزائر: دار الشروق للنشر والتوزيع.

حرز الله، م. أ. (2005). *الظاهرة الثقافية في سيدي خالد أثناء عهد الاحتلال الفرنسي*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون.

خورشيد، ف. د. ت. (الموروث الشعبي) ط ١. (ed.) القاهرة مصر: دار الشروق.

زكي، أ. ك. (1981). أبريل. (التفسير الأسطوري للشعر القديم. فصول. pp. 115-127, 3(3) ,

عبد الحميد يونس. (١٩٥٦). *الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي*. مصر: مطبعة جامعة القاهرة.

عبد الحميد يونس. (١٩٧٩). *التراث الشعبي*. القاهرة: دار المعارف.

عبد النور جبور. (١٩٨٤). *المعجم الأدبي*. لبنان: دار العلم للملايين بيروت.

عجينة، م. (1994). *موسوعة أساطير العرب (عن الجاهلية ودلائلها)*. بيروت، لبنان: دار الفارابي.

عز الدين إسماعيل. (١٩٨٠). *المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي (الإصدار ط ٢)*. مصر: دار المعارف، القاهرة.

عشري، ز. ع. (1997). *استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر*. القاهرة مصر: دار الفكر العربي.

يوسف بيزيد. (٢٠٠٦). *ماهية التراث الشعبي. الموروث الشعبي وقضايا الوطن*، ٥٠.